الأخلاق البيئية عند سينيكا

أ.م.د. حماده أحمد على

كلية الآداب – جامعة جنوب الوادى

Abstract

Seneca`s Environmental Ethics

This research is titled by " Seneca`s Environmental Ethics", Seneca embodied a model for a philosopher who is preoccupied with environmental issues. His books, most of which have been translated into Arabic, did not overlook the descriptive aspect of nature, and the relationship between the environment and man. You will not find a description parallel to what Seneca listed in his works of nature. He has devoted entire works to describing the environment, including the book Natural Issues, which is presented. In it there are many issues such as wind, water, earthquake, fire, lightning, thunder and other natural issues, and it was not limited to presentation only, but in it he dealt with the relationship of these phenomena to man, and he also highlighted in the book of charity how to be kind to the environment that God has given us and we must preserve it and not deviate in its use .

Keywords: Seneca, nature. environment, wind, water.

مقدمة

يعتقد كثير من المعاصرين المهتمين بفلسفة البيئة أنها حقلًا جديدًا من الدرس الفلسفي، إلا أن حقيقة الأمر أن الاهتمام بالبيئة وقضاياها متجذرً في الفكر الفلسفي، فلم يُسم الفيلسوف بهذه الكونية إلا بقدر اهتمامه بما حوله من أرض وسماء وبشر، أعنى إن لم تكن نظرته كلية، وتلك النظرة الكلية لا تغفل بأي حال البيئة التي يعيش فيها، وقد اعتدنا أن نقول إن الفيلسوف ابن عصره وبيئته.

وقد جسد سينيكا نموذجًا للفيلسوف المنشغل بقضايا البيئة، فلم تغفل مؤلفاته التي قمت بترجمة أغلبها إلى العربية الجانب الوصفي للطبيعة، وبيان علاقة البيئة بالإنسان، ولن تجد وصفًا يوازي ما سرده سينيكا في أعماله للطبيعة، وقد خصص مؤلفات بأكملها لوصف البيئة ومنها كتاب مسائل طبيعية الذي تعرض فيه لمسائل عدة مثل الرياح والمياه والزلزال والنيران والبرق والرعد وغيرها من المسائل الطبيعية، ولم يقتصر تناوله على العرض فحسب بل عالج فيها علاقة هذه الظواهر بالإنسان، كما أنه أبرز فى كتاب الإحسان كيفية الإحسان للبيئة التي وهبنا الإله إياها ويجب أن نحافظ عليها ولا ننحرف في استعمالها.

إن هذه الدراسة تحاول أن تطرح لتصور قديم وهو "الأخلاق البيئية عند سينيكا" وتدور إشكاليته حول عما إذا كان هناك تصور عند سينيكا لمفهوم الأخلاق البيئية أم أن تصوره كان عاجزًا؟ هل يسمح الإله بالخلل في النظام البيئي عند سينيكا أم أن الكون برمته محكومًا بالعناية؟ كيف قدم سينيكا نقدًا للإنحراف الأخلاقى الذي يمس البيئة ويفسدها؟ وكيف انتقد سينيكا الإستعمارية الرومانية التى أتت على الأخضر واليابس من أجل الهيمنة؟

وللإجابة على هذه التساؤلات قسمنا الدراسة إلى مقدمة وثلاثة عناصر وخاتمة، أما المقدمة فقد تناولنا فيها أهمية الدراسة وإشكالياتها والخطة المتبعة والمنهج المستخدم، وأما العنصر الأول وهو بعنوان "الظواهر البيئية والدرس الأخلاقي"، والعنصر الثاني

"نقد الإتجاه اللاأخلاقي"، والعنصر الثالث " نقد الرفاهية ولا أخلاقيات الهيمنة على العالم، أما الخاتمة فقد تناولنا فيها أهم النتائج التي انتهت إليها الدراسة.

أولًا: الظواهر البيئية والدرس الأخلاقي

أثار الفلاسفة المهتمون بالقضايا البيئية أسئلة محورية حول علاقة البشر بالطبيعة، وهل البشرهم هم الكائنات الوحيدة التي تمتلك قيمة أصيلة في الكون الذي نعرفه أم أن العالم الطبيعي والنباتات والحيوانات والأقاليم الحيوية تمتلك قيمتها الخاصة المستقلة عن نفعها للبشر؟ هل على البشر إلزامات خلقية نحو البشر الآخرين فحسب أم نحو الحيوانات والنباتات والمنظومات البيئية أيضًا، إلى حد تنبثق المشكلات البيئية عن المركزية البشرية وعن ثنائية البشر – الطبيعة؟ هل على البشر إلتزامات نحو الأجيال المستقبلية؟[١]

وإن كانت هذه هي التساؤلات الجوهرية لفلسفة البيئة المعاصرة فهي لا تنفك عن الإشكاليات التي ناقشها الفكر الرواقي، لاسيما عند سينيكا، ويمكن النظر لطرائق الرومان التراثية للتعامل مع النذر والمعجزات على الأقل كوسائل لمعالجة القلق العام الذي كان يحدث غالبًا من أحداث غير مألوفة مثل ظهور مذنب أو دمار معبد بالبرق، وربما يرى المرء أن سينيكا يقدم بديلًا فلسفيًا للوسائل الدينية التراثية للتعامل مع هذه المخاوف، ويتعامل سينيكا في كتاب مسائل طبيعية مباشرة مع مخاوف الناس من الزلازل أو الصواعق في نقاط بعينها، ويتبع في هذا تراثًا فلسفيًا ممتدًا، وقد ذهب أبيقور إلى أنه لا يحتاج من دراسة طبيعة العالم سوى محو الخوف من الموت والخوف من الأرباب، وقد تبعه لوكريتيوس في التحرر من الموت، وهذا أحد الحوافز المتخللة أعمال سينيكا.

---

[١] – مايكل زيمرمان: فلسفة البيئة من حقوق الحيوان إلى الإيكولوجية الجذرية، الجزء الأول ، ترجمة معين شفيق رومية، سلسلة عالم المعرفة ، العدد٣٣٢، الكويت، ٢٠٠٦م، ص١٦.

فقد ترتفع أحيانًا في كتاب مسائل طبيعية أصواتًا مستفسرة عن جدوى المناقشات العلمية التقنية، ويؤكد سينيكا أحيانًا أن الفهم العلمي سوف يولد فائدة أخلاقية، ويقتفي هنا تراثًا فلسفيًا يرى أن الأخلاق أنجع من الطبيعة للبشر، ويعالج ريب الرومان التراثى من عدم جدوى الفلسفة النظرية. ولكن لا ينبغى أن نضع في الاعتبار أن هذه العبارات مفتاحًا لفتح كل بنية وغاية كتاب مسائل طبيعية، كما لو كان السبب الرئيس من كل هذه المناقشات العلمية هو الدروس الأخلاقية المتجذرة عنها. ومن الواضح أن هناك دوافع أخرى عند سينيكا، بصرف النظر عن الاهتمام الجوهري للعالم الطبيعي، ويكرر سينيكا أن فكرة الانبهار بجمال العالم، والتوكيد على أن دراسة العالم ستؤدي إلى فهم الغاية المطلقة – معرفة النظام الإلهي للعالم والإله ذاته.[١]

إن الغاية من دراسة الأخلاق البيئية كما يقول سينيكا هي: " إن هدفنا أن نعيش وفقا للطبيعة وأن نحاذى مثال الأرباب، ولكن إلى ما تهدف الأرباب من فعلها أبعد من مجرد الفعل ذاته؟ وانظر إلى كم الأشياء التي تصنعها يوما تلو الآخر، وكم الأشياء التي تديرها، وكم الفاكهة التي تملأ الأرض بها، وكم الرياح الذي تطوي البحار التي تحملنا إلى شواطئها، وكم الغيث الغزير المفاجئ الذي يلطف الأرض، ويهطل فيملأ المنابع التي جفت لتمنحها حياة جديدة، إنها تفعل هذا بلا جزاء ولا تجني نفعًا لذاتها. ودع عقل الإنسان إذا ضل عن مثاله، واتبع هذا المبدأ وهو لا تؤدى عملًا فاضلًا بمقابل، وينبغى أن نخجل حين نقيم ثمنًا للإحسان وقد منحتنا الأرباب إياه بلا جزاء. وإن كنت ترغب أن تحاكي الأرباب، امنح الإحسان للجاحد أيضًا، فالشمس تشرق على المجرمين، والبحار تبسط صفحتها للقراصنة"، وهل يثير تساؤلًا عما إذا كان

[1] - introduction Harry M. Hine, Seneca, Natural Questions, The University of Chicago Press,2010, pvii.

سيقدم الرجل الخير الإحسان للجاحد وهو يعرفه بما هو، ودعني أضيف هنا شيئًا لأتجنب فخًا بسؤال مربك."[1]

أ: وصف الطبيعة

وقد وصف سينيكا فى عزائه إلى ماركيا البيئة وما يحيط بنا وصفًا دقيقًا، حيث يعتبر الرواقيون أن العالم برمته دولة مدينة فيها كل البشر مواطنون، وهو يقول "أنت على وشك أن تدخل مدينة يتقاسمها الأرباب والبشر، وهي تشتمل على كل شيء مرتبط بالثبات والقوانين الأبدية، وتحوي كل الأجرام السماوية الدوارة التي تؤدي واجباتها بلا كلل، سوف ترى هناك وميض نجوم لا حصر لها، وسوف ترى العالم يضيئه نجم واحد، وترسم الشمس بمسارها اليومي فترات الليل والنهار، وتفصل بمسارها السنوي الصيف والشتاء بالتساوي، وسترى القمر يُنتزع في الليل ويقتبس اللطف، وتعكس النور من ملاقاتها قريناتها، فأحيانًا تخبو وأحيانًا أخرى ترتسم فوق الأرض بوجهها الكامل، تتحول مثل الشمع وتنمحي، وهي تختلف عن ليلتها المنصرمة دومًا. وسوف ترى الأجرام الخمسة تتبع مسارات متباينة، وتندفع نحو حركة العالم السريعة، فقد تعتمد ثروات الأمم على غيض حركاتها، .....، وسوف يخلبك تجمع السحب وهطول المطر والبرق المنعرج والسماء المتخمة بالرعد. وحين تُملِّي عينيك بمشهد العالم العلوي، وتحوِّل نظرك للأسفل نحو الأرض، سوف ترحب بأنماط متفاوتة للعالم بأعاجيب متنوعة، حيث هنا تمدد السهول المترامية التي تمتد بلا نهاية، وهنا تحلق قمم الجبال التي ترتفع بشموخ بنتوءاتها الثلجية التي تخر مجاريها للأسفل، وتتدفق أنهار الشرق والغرب الفسيحة من نبع واحد، وتتمايل الغابات بأشجارها والأحراش المتسعة بحياتها البرية، وتغريد الطيور في اختلاف تنافرها. ومدن في مواقع متنوعة، وأمم تقطعها تضاريس وعرة بعضها تمتطي الجبال وأخرى تأوي إلى ضفاف البحيرات

[1] - Seneca: On Benefits, translated by Miriam Griffin. The University of Chicago Press, 2010, b4, 25-1: 26-1,

والمستنقعات، فيعززون المحاصيل بالفلاحة، وتثمر الأشجار من تلقاء ذاتها، وتتدفق النسائم اللطيفة خلال الرياض والخلجان الماتعة، فتنسحب الضفاف لتشكل الموانئ، وكل هذه الجزر المنتشرة عبر المياة الخالية تزين البحار حيث انبثاقها. وماذا عن بهاء الأحجار الكريمة، والذهب الذي يختلط مع رمال السيول السريعة، وانفجارات النار الملتهبة في باطن الأرض والبحر، والمحيط الذي يُطوِّق الأرض ويعيق تواصل الأمم بخلجانه الثلاثية مع ارتفاع المد والجزر يمحوها كاملًا؟ هنا سوف ترى سباحة في الماء لا تسكن، وتلاطمًا حتى في عدم وجود رياح، ومخلوقات تتجاوز حجم حيوانات البرية، بعضها ثقيل الوزن، يتحرك تحت سيطرة الآخر، وبعضها خفيف أسرع من المجدفين بقوتهم كاملة، وبعضها يرشف في الماء ويتنفس بالخارج ويسبب خطرًا كبيرًا في مرور الرحالة، هنا سوف ترى سفنًا تبحث عن أرض مجهولة، ولن ترى شيئًا لا يجذب غرور البشر سواء أكنت متفرجًا أم شريكًا فيه فهو مسعى عظيم، وسوف تتعلم وتفهم مهاراتها، بعضها يحافظ على الحياة، وبعضها يعززها، وبعضها يوجهها."[١]

وفوق هذا كله "إن الطبيعة لا تنتج خلقها وفقًا لنمط واحد ولكنها تبتهج بالتنوع: فقد صنعت بعض الأشياء أكبر من الأخرى وبعضها أسرع وبعضها أقوى وبعضها أكثر اعتدالًا، وفصلت البعض عن الحشود حتى يتحركوا من تلقاء أنفسهم بجلاء ولكنها أرسلت الآخرين لينضموا للقطيع، وأيًا من يعتقد أن الطبيعة لا يحق لها أن تقوم بشيء بين حين وآخر باستثناء ما فعلته فإنه لا يعرف قوة الطبيعة."[٢]

[1] Seneca: Consolation to Marcia, translated by Harry M. Hine, Hardship and Happiness, The University of Chicago Press, 2014, 18-1:18-6, p23.

[2] Seneca: Natural Questions, On Comets, translated by Harry M. Hine, The University of Chicago Press, 2010, 27-5, p132.

وقد خدمتنا الطبيعة بأفضل صورة ولم تعتد بأحد آخر، وتعلم كروب الذين ولدتهم، وابتدعت العادة باعتبارها ملطفًا للمصائب، وسرعان ما تجعل المصائب الأكثر ألمًا مألوفةً، فلا أحد يتحمل إذا كان حضور المصائب له نفس قوة الصدمة الأولى.[1]

وقد صنع سينيكا من الطبيعة نموذجًا يمكن تطبيقه على الجانب الإنسانى وهو يقول "وأصبحنا معتادين لظروفنا ونشتكي منها بقدر ما نستطيع، ونستولي على أي فائدة تجلب معها، ولا يوجد شيء أفضل من العقل الذي لا يجدون فيه راحةً، وغالبًا قد تفتح مهارة المهندس المساحات الصغيرة لأغراض كثيرة ويصنع من الأماكن الضيقة للغاية مكانًا للسكن، وطبق السبب على صعوباتك، فالظروف القاسية يمكن تخفيفها، والأماكن الضيقة قد تتسع، والحمول الثقيلة يقل عبؤها على الذين يتحملونها بحذاقة."[٢] ومنحتنا الطبيعة ميلًا فضوليًّا ووعيًا بحذقها وجمالها، ومنحتنا الحياة لرؤية مشهدها العظيم، وإنها تؤكد أنها سوف تفقد المتعة في ذاتها إذا عرضت أعمالها باتساع وتميز وإبداع فاتن وبريق وجمال يصعب على المرء مشاهدته في عزلة خالية. "وحتى تفهم مرادها، لا تشاهد فحسب، بل راقبها عن قرب، وتأمل المكان الذي عينته لنا، إنها وضعتنا في مركز خلقها، ومنحتنا قيادة الكون، وليس هذا ليقف الإنسان منتصبًا، بل لتعده للتأمل، حتى يتمكن من متابعة النجوم وهي تنزلق من بزوغها نحو مواضعها، ويحول نظره بتحول الكون، وحتى يضع رأسه فوق جسده ويضعها على رقبة لينة، ويكشف عن كل جزء منه بعمل ستة أبراج تشرق في النهار وستة في الليل، وبالعجائب التي قد تحلها على نظرنا تثير اهتمامًا قويًّا في الآخرين كذلك. ولأننا لا نستطيع رؤية كل أبعادها الحقيقية، إلا أن رؤيتنا تفتح الطريق لتفحص ذاتها وتضع أساسًا للحقيقة، مما يسمح لنا بحثنا أن نتقدم من الواضح إلى الخفي، ونكتشف أشياء أقدم من العالم ذاته، فما أصل هذه الأبراج؟ وما الحالة الطبيعية التي كان

[1] - Seneca: On Tranquility of Mind, translated by Elaine Fantham, Hardship and Happiness, The University of Chicago Press, 2014,10-2. P197.
[2] - Ibid, 10-4. P197.

عليها الكون قبل بدء انفصال العناصر المختلفة عن أجزائه؟ وما المبدأ الذي فصلهم حينما سقطوا نحو ظلام وفوضى؟ ومَن الذي عيَّن مواضع الأشياء؟ وهل الأشياء الثقيلة بطبيعتها انهارت للأسفل وتطايرت الخفيفة للأعلى، أم أن هناك قانونًا تضعه قوى عليا للأجسام المفردة بصرف النظر عن دفعها أو وزنها؟ أم أن هناك حجة بالغة تسعى لتبرهن أن البشر جزء من النفحة الربانية، وأن بعض الجوانب والشرارات كالنجوم التي تسقط نحو الأرض لا تعلق بمواضعها[١] ؟

وإن كانت أفكارنا تحدها أسوار السماء، وما من معرفة سوى التي تظهر للعين، فيتساءل سينيكا على محدثه فى كتاب أوقات الفراغ "أنا أبحث عما يكمن وراء العالم، وهل هو رحابة لا محدودة أم أنه فضاء يُغلفه بحدوده؟ وما حالة الأشياء وراء هذه الحدود؟ وهل هي عديمة الشكل ومختلطة معًا تتخذ الفضاء نفسه في كل الاتجاهات، أم أنها مقسمة إلى بعض الأنظمة؟ وهل هي مرتبطة طبيعيًّا بهذا العالم، أم بعيدة عنه وتتركه يدور في الخلاء؟ وهل هي من الذرات التي كل شيء منها، أم التي سوف تأتي إلى الوجود الذي قد شُيد، أم هي جوهر الأشياء المتصلة القادرة على التحول في كل جانب؟ وهل العناصر معادية لبعضها بعض، أم الأحرى أنها تتقاتل بينها وتعمل بشكل متناغم معًا في اتجاهات مختلفة؟". وهو يبرر ولذلك أعيش وفقًا للطبيعة، وإن كرستُ نفسي كليةً لها، وإن عشقتها وعبدتها، وتتمنى الطبيعة أن أفعل كليهما: أي أكون فاعلًا وحرًّا في تأملي، وأنا أفعلهما على حد سواء، حيث ينطوي التأمل على الفعل.[2]

---

١ – النفس العقلانية الإنسانية في النظرية الرواقية قسم نَفْسه إلهية أو بنيوما pneuma للعالم الناري.

2 - Seneca: On Leisure Time, translated by Gareth D. Williams Hardship and Happiness, The University of Chicago Press, 2014, p226.

ب- البيئة والعناية الربانية

إن الطبيعة لم تُخلق دون عناية، وإن كان الأمر خلاف ذلك، لطغى بعضها على بعض وفسدت البيئة، "وكثير من الأشياء تتعلق بالألوهية الأسمى عين لها سلطانًا مماثلًا له وهو الخفاء، وما الذي يدهشك كثيرًا فكلاهما يغمر رؤيتنا ويحيرها، وسواء أكانت ضعيفة لا يمكن لرؤية البشر أن تدركها، أم تخفي هذه العظمة ذاتها في عزلة أقدس، فتخفي ملكوته، فهو الطبيعة ذاتها، يمنح مدخلًا لأي شيء سوى العقل، ولا يمكننا أن نكتشف ما هذا الشيء الذي دونه لا يوجد شيء، ومع ذلك ندهش من أن ما نعلمه عن مجرد النيران قليل في حين أن الطرف الأعظم للعالم وهو الرب خفيًا!"[1]

"فكم عدد الحيوانات التي اكتشفناها لأول مرة فى هذا الجيل، وكم عدد ما لم نكتشفه منها أيضًا! إن الناس في زمن المستقبل سيعرفون كثيرًا عما نجهله، فما يُحفظ للأجيال القادمة كثير بعد أن تتلاشى ذواتنا، ولا قيمة للعالم إن لم يبق شيئًا لكل جيل ليكتشفه. ولا تُمرر بعض الأسرار القدسية في آن: حيث احتفظت ديانة إليوسيس Eleusis بالأشياء ليكتشفها القادمون[٢] ولا تُبيح الطبيعة بأسرارها القدسية في آن، فهل تعتقد أننا بادرنا؟ إننا عالقون في مدخل الردهة، ولم تكتشف هذه الأسرار عرضًا أو للجميع: فهي تنقطع وتُحبس في ملاذ باطن، وسوف يرى أجيالنا شيء والقادمون بعدهم سوف يروا شيئًا آخر. ومتى تشمل معرفتنا كل هذا؟ تتقدم مؤسساتنا ببطء خاصة إذا تداعت الجهود، ونحن لم ننته بعد من المهمة الوحيدة التي خصصنا لها كل عقولنا – وصارت لا أخلاقية بقدر الإمكان، ولا تزال الرذيلة في تقدم، ويكتشف الترف شيئًا جديدًا يمضي به إلى الجنون، ويُفضي الفجور الجنسى بإذلال جديد

[1] - Seneca: On Comets, op cit, 30-4, p137.

[٢] – كان ملاذ ديميتر وكورا فى إليوسيس في أتيكا، وهو موقع الأسرار الإليوسية، الذي كان لا يزال يُحتفي به حتى عصر سينيكا.

يصيب به نفسه، ويكشف الأنهيار الأخلاقي والفساد الناجم عن انغماس الذات عن شيء أشد شهوانية ومتعة يموت من أجلهما".[1]

ويقول سينيكا فى مفتتح كتابه عن العناية الربانية: " لقد سألتني يا لوكيليوس ما الحجة إذا كان العالم محكومًا بالعناية وأن تحدث أمورٌ مكروهة للصالحين، وكان من الحري الإجابة على هذا في سياق العمل الذي برهنَّا فيه أن الأرباب في محيطنا، وأن العناية مسؤولة عن كل شيء على الإطلاق، وطالما تريد أن تقتطع جزءًا يسيرًا من العمل كله، وتسوي خلافًا واحدًا وتتخلى عن الحوار العريض الذي قدمناه، فإنني سأقوم بشيء هين وهو أنني سأدافع عن قضية الأرباب. ومن التزيد في الوضع الراهن أن تُظهر أن عملًا بمثل هذا العظم لا يوجد دون نوع من الحماية، وأن الأجرام السماوية لا تجتمع معًا وتتحرك في هذا الاتجاه بدافع الصدفة، والأشياء التي تدفعها الصدفة غالبًا محلٌّ للفوضى ويصطدم بعضها بعضًا، في حين تستمر هذه الحركة السريعة دون اصطدام ماثلة لقانون أبدي، وهي تحمل معها أشياء البر والبحر على طول الخط، ولذلك تشع الأنوار وتتجلى وفقًا لتدبير بعينه، ومن التزيد أيضًا أن تبين أن هذا النظام ليس منتوجًا لمادة تتحرك عشوائيًّا، وأن أشياء الصدفة لا يمكن التعبير عنها بدقة سوى أنها نتيجة لذلك، فيمكث وزن الأرض الهائل دون حركة، وترى السماوات المتسعة تطير حولها، وتصبُّ البحار في الوديان فتلطف الأرض ولا تُفيضها الأنهار، فقد تُولد الأشياء الكبيرة من بذور صغيرة للغاية. وحتى تلك الأشياء التي تبدو غير منتظمة وغير محتملة، أعني المطر والسحب والصواعق الرعدية المنيرة، والنيران التي تتفجر من قمم الجبال المكفورة والرواسي الهامدة والمضطرمة، وغيرها من أشياء تزعزع أطراف العالم التي في حركة حول الأرض– ولا حتى تلك الأشياء التي تحدث فجأة دون سبب وفيها أسبابها التي تخص حدوثها.[2]

---

[1] - Seneca, On Comets, op.cit, 30-5,6,p138.

[2] - Seneca: On Providence, translated by James Ker, Hardship and Happiness, The University of Chicago Press, 2014, 1: 4. P282.

ج- الطبيعة والإحسان

لا يمكن أن يختزل الإحسان بين الإنسان وأخيه الإنسان عند سينيكا بل يشمل الإحسان الوجود برمته، فهو وجود وسط بين الإنسان والطبيعة والإنسان والرب، فالوجود مضفورة لا ينفلت عقدها، وذلك لأن الإطار العام للفكر الرواقي يؤمن بوحدة الوجود، وقد صاغ سينيكا العلاقة بين الإنسان والطبيعة في اطار فلسفي مظهرًا فضل الطبيعة على الإنسان، ولكن لم يركز على دور الإنسان تجاه الطبيعة كما سنرى، وذلك ربما أعتقد أن تذكير الإنسان بهبة الطبيعة قد يذكره بدوره، وإذا كان دور الطبيعة الوجودي خدمة الإنسان فإنها تؤديه حتى لو جحدها.

ورغم أن هناك من بني الإنسان من يجحد الطبيعة فإنهم "لا يستحقون رؤية نور النهار ولا زالت الشمس تشرق، وكثيرًا منهم يلعن يوم مولده ولا زالت الطبيعة تدفع بنسل جديد وتسمح لمن لا يطيقون وجودهم بالاستمرار في العيش".[١] ويتساءل سينيكا وهل توقفت السماء عن تقليب الفصول؟، وهل كفت الشمس عن تطويل أو تقصير النهار؟، فكل هذا إحسان قائم لفائدتنا، وكما أن من عمل السماء أن تحفظ دورة تحول الأشياء، ومن عمل الشمس التغيير عند الشروق والغروب، وأداء هذه الحركات إحسان لنا دون أجر، فإن من عمل الإنسان أن يبذل الإحسان، ولماذا يعطيه؟ حتى يتجنب عدم عطائه ولا يفوت فرصة عمل حسن.[٢]

ويتساءل مرة أخرى "وهل من شك في أن الشمس والقمر ينظما موطن جنس البشر كما تدور حول مداراتها، فقد تغذي حرارة الشمس أجسامنا وتحل التربة وتخفض الرطوبة الزائدة وتخرق ضراوة الشتاء الذي يُصقع كل شيء، وتدفئ على الجانب الآخر وتُنضج المحاصيل، وهناك تطابق بين دائرة القمر وخصوبة الإنسان، وهل

1 - Seneca: On Benefits, op.cit, b4,11-1, p97.
2 - Ibid : b4, 12-5,p93.

الشمس بدورانها تخلق الإدراك الحسي بالسنة، والقمر بدوائره القصيرة يخلق الإحساس بالشهور؟"[١]

وانظر إلى كم الأشياء التي تصنعها يوما يلو الآخر، وكم الأشياء التى تديرها، وكم الفاكهة التى تملأ الأرض بها، وكم الرياح الذي تطوى البحار التى تحملنا إلى شواطئها، وكم الغيث الغزير المفاجئ الذي يلطف الأرض، ويهطل فيملأ المنابع التي جفت لتمنحها حياة جديدة، إنها تفعل هذا بلا جزاء ولا تجني نفعا لذاتها.[٢]

ويرى سينيكا لو أن الطبيعة كفت عن الإحسان فإن " ظلم الطبيعة جسيمًا إن حولت عظيم الخير إلى خبث وشقاء ووضاعة.[٣]

لو تخيلت كل هذا محذوفًا، فهل ستظل الشمس مشهدًا ثابتًا لعيوننا يستحق التبجيل حتى لو أبحرت بنا؟، ألا يستحق القمر النظر إليه حتى لو رحل على هيئة نجم فارغ؟، أليس الكون ذاته حين يصب نيرانه في الليل ويضيء زاهيًا بنجوم لا تعد، وإن من يحملق لا يركز نظره على القمر ذاته؟ ومن الذي يفكر أن في اللحظة التي ينظر فيها إلي النجوم بتعجب أنها ستنفعه؟

وشاهد هذه الأجسام المنزلقة بالهواء في هذا الانبثاق الكبير وكيف تُخفى سرعتها عنا وتبدو وكأنها واقفة بلا حراك، فكم من الأشياء تحدث في الليل، وما الذى تلاحظه في علامات النهار! وماذا عن حشد الأحداث الذي انبسط في هذا الصمت![٤]

ودع كل الأجرام السماوية تتباعد بمسافات واسعة وتنتظم لحماية العالم حين تتخلى عن مواضعها، ودع النجوم تصطدم ببعضها في فوضى غير متوقعة، ودع الكيانات الربانية تنزلق نحو التدمير بالانسجام مع المادة المضطربة، ودع نظام

1 - Ibid : b4,23-1,p100.
2 - Ibid : b4,25-2,p101.
3 - Ibid : b4,22-3,p100.
4 - Ibid : b4,23-3,p101.

الحركة المفاجئ يفشل في منتصف المسار لترتيب التعاقب المعهود به لقرون عدة، وهو أن تستمر الأجرام في تناوب يحفظ العالم وتزنه بتعادل مفاجئ يستنزفها في النار، ودع كل شئ في تنوعه الهائل يذوب ويجتمع في واحد، ودع النار تأخذ كل شئ يناديه الظلام الحالك إليه، ودع الصدع العميق يبتلع كل هذه الموجودات الربانية" هل يصح كل هذا الانهيار من أجل اقناعك؟ إنها تعمل حتى ضد رغبتك، وإنها تتحرك لمصلحتك حتى لو كان لها سبب آخر أكثر أصالة منك.(١)

ولم تُخلق الأجرام عبثًا فما المصير المحتوم الذي يصفه الفلك الظاهر!، فالنجوم التي تراها منثورة في الأعالي للزينة تعمل، وليس هناك سببًا لتعتقد أن النجوم الجائلة سبعة فحسب والباقي ثابت، حيث ما يظهر لنا حركات قليلة وأرباب لا تُحصى تروح وتغدو بعيدًا عن رؤيتنا، وكثير منها قد تراه أعيننا يمضى قدما في المجهول ومدفوعا في السر.(٢)

وعطاء الطبيعة لا ينقصها شيئًا كما أن عطاء الرب لا يقل خزائنه شُعيره، ولذلك يقول سينيكا: "إن الطبيعة لا تفقد شيئًا فمهما نُزع منها يُرد إليها، ولا شيء يفنى حيث لا يوجد مكان يهرب إليه ولكن يعود للمكان نفسه مرة أخرى من حيث أتى".(٣) "والطبيعة ذاتها لا تسترد ما أعطته، فهى تقصر فيض إحسانها ولا تمحوه.(٤)

"فقد نُحرم أحيانا من استعمال الإحسان ولكن الإحسان ذاته لا ينمحى، فالطبيعة لا تنقض أفعالها وهي تستجمع كل قواها لهذه الغاية، فالمأوى والمال والعبد تحت مسمى الإحسان وقد تتلاشى ولكن الإحسان ذاته باقٍ ولا يبلى، وليس من قوة قد تبطل واقع أن المرء قد أعطى وتلقى."(٥)

1 - Ibid :b6, 22, p151.
2 - Ibid : b4,23-4,p101.
3 - Ibid : b5, 8-5, p120.
4 - Ibid : b6,2-2,p137.
5 - Ibid : b6,2-3,p137.

وكذلك نحن لا نقدم شكرًا للأنهار حتى لو سُيرت السفن في البحار الشاسعة، وهيأت مجراها لنقل البضائع، أو زخرت بالسمك وسحر حقولها المثمرة، ولا يزيد من يعترف بأنه مدين بالفضل للنيل عن أنه يُخفى ضغينة تجاهه، وإذا فاضت ضفافه على غير العادة وانحسرت ببطء، ألم تقدم الرياح إحسان حين تهب بلطف وخير، وألم تجعل الغذاء مفيدًا وسليمًا، ومن يريد أن يقدم لى إحسان لا ينبغى أن يصنع الخير لي فحسب بل يتمناه لي كذلك، ولذلك لا ندين للحيوانات الأعجمية رغم أن سرعة الحصان قد تنقذنا من الخطر، ولا ندين للأشجار رغم أن ظل غصونها ملجأ للذين يعانوا من القيظ.[١]

وقد جعل سينيكا منح الإحسان من المحسن محاكاة للرب وهو قول جاءت به المسيحية بعد ذلك[٢] وهو يقول: "وإن كنت ترغب أن تحاكي الأرباب أمنح الإحسان للجاحد أيضًا، فالشمس تشرق على المجرمين، والبحار تبسط سطحها للقراصنة."[٣]

وإن كانت الأرباب لا تميز بين الأخيار والأشرار في إسباغ النعم فعلى الإنسان أن يقتدي بها، فالعلاقة بين الخير والشر علاقة متشابكة، وقد يعرف أحدهما بإدراك الآخر " وحتى الأرباب تمنح الجاحد أشياء شتى" ولكنها تُعده للخير، وهي تقع في الشر كذلك، لأن الخير والشر غير منفصلين، ومع ذلك من الأفضل أن تعين الشر من أجل الخير، وكذلك يفشل الخير بسبب الشر، وكل الأشياء التي تذكرها كالنهار والشمس وتعاقب الشتاء والصيف ودرجات الحرارة المعتدلة للربيع والخريف والأمطار وهطولها في الينابيع وهبوب الرياح بانتظام، كل هذا إبداعهم لخير الناس دون أن تقصي أحدا منهم[٤]. وكذلك يمنح الملك الشرف لمن يستحق ويسخو على من لا

---

1 - Ibid : b6,7-3,p141.

٢ – لِكَيْ تَكُونُوا أَبْنَاءَ أَبِيكُمُ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ، فَإِنَّهُ يُشْرِقُ شَمْسَهُ عَلَى الأَشْرَارِ وَالصَّالِحِينَ، وَيُمْطِرُ عَلَى الأَبْرَارِ وَالظَّالِمِينَ. إنجيل متى ٥: ٤٥.

3 -Ibid : b6, 26-1, p153.

4 - Ibid: b6,28-1,p 155.

يستحق دون تمييز بين اللص وشاهد الزور والعاهر، يمنحه بصفته مواطنًا وليس بصفته مواطنًا خيرًا، ويُقاسم الخير والشرير على حد سواء.

والرب يعطي هبات بعينها لجنس البشر دون أن يُقصي أحدًا، فمن المحال أن تكون الرياح نعمة للخير وطامة على الشرير، ومن الخير العام أن يكون البحر ممتدًا لكل لجنس البشر، ومن الصعب أن تصك قانونًا للأمطار لتمنعها من الهطول على حقول الأشرار والخبثاء.[١] وكذلك وبعض الأمور شيوعًا بيننا جميعا، فالمدن أقيمت للأخيار والأشرار على حد سواء، وأعمال الأبداع قد تنتشر حتى لو وصلت إلى جائر، وسيوجه الطب علاجاته حتى للمجرمين، ولا أحد يمنع علاجًا ناجعًا ليتفادى شفاء من لا يستحق.[٢]

ثانيًا: نقد الإتجاه البيئي اللاخلاقي

يرى سينيكا أن "أى انحراف بالطبيعة من حالها الراهن يكفى لتدمير البشر، ولذا حين تصل اللحظة المحتومة سوف يحرك القدر علل عدة دفعة واحدة لأن هذا التغيير لا يمكن أن يحدث دون أن يهتز العالم."[3]

وإن ما يصنع هذا الإنحراف هذا التكلف في العيش، والخروج عن مبدأ العيش وفقًا للطبيعة، ويضرب لنا مثالًا وهو يقول "جايوس قيصر الذي ولدته الطبيعة، يبدو لي أنه اقترف إثمًا حيث جمع علية السلطة على العشاء، وقد تكلف عشرة ملايين سيستيركس والكل تفانى في عونه لتحقيق هذه الغاية، لقد أنفق الضريبة التي جمعها بالكاد من ثلاث مقاطعات في عشاء واحد. ويا للبؤس مَن لا تُحفَّز شهيتهم إلا بالطعام المكلف؛ لأن ما يجعله مكلفًا ليس نكهته الطريفة أو الإحساس المبهج في الحلق، بل ندرة وصعوبة الحصول عليه، ولو عاد هؤلاء إلى الحكمة طوعًا فلمَ الحاجة

1 - Ibid: b6,28-3, p155.
2 - Ibid: b6,28-4,p155.
3 - Seneca: Natural Questions, On Terrestrial Waters, translated by Harry M. Hine, The University of Chicago Press, 2010 , 37-3, p45.

إلى المهارات الشتى للمحترفين التي تخدم البطن؟ وما الحاجة إلى الاستيراد أو تدمير الغابات أو مخر البحر؟ وكل ما أعدته الطبيعة من طعام متاح في كل مكان، ولكن هؤلاء يمرون عليه كالأعمى، فيجوبون كل بلد ويعبرون البحار رغم أنهم يمكن أن يسدوا جوعهم بتكلفة زهيدة بدلًا من النفقة الكبيرة. أشعر وكأنني أقول لهم: "لماذا تطلقون سفنكم؟ ولماذا تشهرون سيفكم على البشر والبهائم؟ ولماذا تندفعون بفوضى عارمة؟ ولماذا تكدسون الثروة على الثروة؟ ألم تنظروا كيف أن أجسادكم هي ضئيلة؟ أليس جنونًا ونهمًا مفرطًا أن ترغب في الكثير في حين يكفيك القليل؟ وهكذا ربما تُزيد منفعتك وتُمدد أرضك، ولا تستطيع أن تُوسع قدرة جسدك، ورغم أن عملك قد يزدهر، وتجلب خدمتك العسكرية لك طائل، وتتعقب الطعام وتجمعه من كل حدب، وقد لا تجد مكانًا تخزن فيه مؤنك الفاخرة.

لماذا يطاردون أشياء عدة؟ أنا أسألكِ! إن أسلافنا الذين تسند فضائلهم رذائلنا كانوا تعساء بلا ريب؛ لأنهم قدموا الطعام لأنفسهم بأيديهم، وكانت الأرض سريرهم؛ لأن بيوتهم لم تلمع بالذهب ولم تسطع معابدهم بالأحجار الكريمة، وفي هذه الأيام يكون القسم جليلًا بالحلف بآلهة الطين، وهؤلاء يتوسلون للآلهة أن يرجعوا للعدو حتى لو كانوا متحققين من الموت أكثر من أن يكسروا كلمتهم.[1]

وينتقد سينيكا الثقافة السائدة في المجتمع الروماني المضادة لمفهوم البيئة، وإنهاك مصادرها، ويتجلى ذلك في مناقشة خمسة قضايا:

أما القضية الأولى الانحراف الأخلاقى في التلذذ بمشاهدة موت الأسماك، فإذا كان من الطبيعي صيد الأسماك وطهيها للطعام، فإن من غير الطبيعي مشاهدة الأسماك على المائدة وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة، لذلك يقول: "هل تندهش بهذا؟ كم لا تُقبل إنجازات الرفاهية! وكم هي زائفة أو تتجاوز الطبيعة! حيث تسبح الأسماك على

1 - Seneca *: Consolation to Helvia translated by* Gareth d. Williams, Hardship and happiness, The University of Chicago Press, 2014, *10-4: 10-7, p 59.*

الأريكة، ويصطاد أحدهم تحت المنضدة لينقلها على المنضدة مباشرة، ولا يبدو سمك البوري طازجًا بما فيه الكفاية إن لم يمت في يد الضيف، ويضعونه في آنية زجاجية ويربونه فيها، ويشاهد الناس ألوانها وهي تموت، ويسبب الموت تغييرات لها وهي تصارع بأنفاسها، إنهم يقتلون الأسماك بتوابل وينقعونها وهي لا تزال حية..... اسمح لي أن أطرح حوارنا جانبًا لفينة وأنتقد الرفاهية " أنت تقول لا شيء أجمل من سمك البوري وهو يموت، حيث يُضعف نضاله تنفسه، فأولًا يكون مخضبًا بالإحمرار ثم بالشحوب، ويحفظ قشره تغيير درجة لونه، ولونه يتحول بظلال يرفرف بها بين الحياة والموت، إن الرفاهية تستطيل بين البلادة والخمول والإهمال، وبمجرد أن تستيقظ سوف تدرك أنها خداع وغش لشيء ما جميل، وحتى الآن لا يتمتع سوى الصيادون بمثل هذا المنظر الجميل"..... لقد أصبحت معدة الذواقة مفرطة الحساسية لدرجة أنهم لا يستطيعون تذوق أي شيء ما لم يروه يسبح ويرتعد في حفلة عشاءهم، فكيف زادت حيل الرفاهية القاتلة! والجنون الذي يحتقر المألوف يبتدع كل يوم شيئًا أشد مكرًا وأعظم حذقًا!..... ومن ثم كل امرئ على حسب خبرته يلوح ويقول" انظر إلى كيف أن اللون الأحمر قد توهج أكثر من أي صبغة فاقعة! انظر إلى العروق التي تتدفق بطول جانبيه! أتدرى أن أمعائها مليئة بالدم! انظر تلوين الأبيض اللامع والأزرق قد يظهر تحت رأسها! الآن يتمدد ويشحب ويتحول إلى لون واحد"..... ولا أحد من هؤلاء يجلس بجوار صديق ميت، ولا حتى يتحمل أن يرى موت أبيه مع أنه ابتهل من أجل هذا، أي منهم بالكاد أن يتبع موكب جنازة أحد عائلته إلى المحرقة! أو يطيق رحيل أخيه أو جاره في ساعته الأخيرة، ولكن الناس يتنافسون على موت سمك البوري:" لأنه لا شيء أجمل من هذا".....لا أستطيع أن أستوقف نفسي من استعمال كلمات رعناء من وقت لآخر متجاوزًا حدود اللياقة: فهم لا يكتفون بأسنانهم وأمعاءهم وأفواههم في موضع الأكل بل تشرهت عيونهم كذلك.[1]

[1] - Seneca: Natural Questions, On Terrestrial Waters, op.cit,17-2, 18-7, p34.

وأما القضية الثانية وهى مسألة الإسراف فى استعمال الثلج وتحويل الماء، والتربح من صناعته "ودعنا نناقش كيف شُكل الجليد بدلًا من كيفيه حفظه، حيث لا نكتف بتعبئة النبيذ بل نعرفه بالنكهة وطول تعتيقه، وقد وجدنا طرقًا لتعبئة الجليد نتغلب بها على الصيف ونحفظه من حرارة الفصل بتبريد موقعه، فماذا حققناه بهذه الجهود؟ حسنًا، من الواضح أننا نتاجر بالماء رغم أنه مجانيًا، ونحن أشقياء لأنه ليس بمقدورنا أن ندفع مقابل النفس وأشعة الشمس، فالهواء متاحًا حقًا دون دفع شيء مقابله، آه يالرعونة ما نفعله والطبيعة قد أبقت كل شيء متاحًا بيسر!.

أرادت الطبيعة أن تتدفق هذه المادة، وفي متناول الجميع، قد أتاحتها للجموع من كل الموجودات الحية لتشرب، إنها صبته بسخاء وبوفرة للبشر والوحوش البرية والطيور والحيوانات الكسولة لتستعمله، ولكن الترف وابتداع الضرر أعطى للماء ثمنًا باهظًا، وكما ترى إنه لا شيء على الإطلاق يُرضي الترف إلا ما كان غالٍ، وكان هذا هو الشيء الوحيد الذي ينزل الأثرياء إلى نفس مستوى الجماهير، والشيء الوحيد الذي ليس بمقدورهم أن يتجاوزوا به حد الفقر، واما من تثقل كاهلة الثروة يبتدع طريقة حتى للماء ليزود الترف.

وسوف أفسر كيف نصل إلى الأمر حيت لا تبدو المياة المتدفقة باردة بما فيه الكفاية لنا، وطالما أن المعدة سليمة يمكننا أن نتناول طعامًا مفيدًا، مشبعًا لا حشوًا، ومرضيًا بمسكنات طبيعية، وعندما يُحرق بعسر الهضم اليومي، لا يتأثر بحرارة الطقس بل بحرارته ذاته، وعندما يرسخ الإدمان المتواصل للخمر ذاته في الأعضاء الداخلية ويغلي الجهاز الهضمي بالصفرا التي تشكله فيتحتم البحث عن شيء لتلطيف ارتفاع حرارة الجسم التي تزداد حدتها بالحرارة، ولا تؤدي العلاجات

إلا إلى تفاقم المرض، وهكذا يشربون الثلج ليس في الصيف فحسب بل في منتصف الشتاء أيضًا لنفس السبب".[١]

"فما السبب لهذا إن لم يكن قد دمرت الأمعاء المريضة والجهاز الهضمى بالإفراط؟ فهم لا يمنحوها أي وقفة للراحة: حيث يتواصل العشاء حتى الفجر، ويلتحم بالغداء، وعندما يضخمون الوجبات بكميات ويصنفون أنواعها فإن الحفلات تؤدي بهم إلى انحدار أعمق، ومن ثم فإن انغماس النفس المتواصل الذي يتغلب على عقولهم يدفع ما تبقى منهم إلى حالة الجنون ويلهبهم بالتوق إلى شيء ما شديد البرودة.

وهكذا رغم عزلهم لغرف الطعام بالستائر وألواح النوافذ، وترويض الشتاء بإشعال النيران، ورغم أن المعدة تضُعف بحرارتها وتذبل تبحث عن شيء ينعشها، كما نرش الماء البارد على من أغمى عليهم أو من تنتابهم هزيان، عسى أن يستعيدوا حواسهم، فأعضاؤهم الداخلية المتلبدة برذائلها لا تشعر بشيء إلا إذا صدمتها بالماء.

ولهذا السبب أقول لك، لا يرضون حتى بالثلج بل يسعون إلى الجليد حتى إن كان صلبًا، فبرودته أكثر فعالية ويصبونه باستمرار على الماء ليخلطونه به، والجليد لا يُأخذ من السطح بل من عمق أكبر ليحصلوا على قوة أعظم وبرودة أكثر، فليس هناك رسومًا للماء بل صار للماء تجاره (وياللعار!) وأسعار محددة.

وطرد الشعب الإسبرطي Lacedaemon بائعي العطور من مدينتهم، وأمروهم مغادرة أراضيهم بسرعة لأنهم يهدرون زيت الزيتون، فماذا كان بوسعهم فعله لو أنهم شاهدوا ورش تخزين الثلج والحيوانات التي توظف لنقل الماء ولونها وذوقها ملطخ بالقش الذي تحفظه؟

[1] - Seneca: book4 B, On Clouds, <Rain, Hail, Snow>, Natural Questions, translated by Harry M. Hine, The University of Chicago Press, 2010, 13-1,2, 3,4,5, p78.

وكم هو سهل أيتها الأرباب الخيرة إرواء العطش الصحيح! وأي شعور يواجهه من تلتهب حناجرهم بالطعام الحارق؟ حيث لا يكفيها شيء من البرودة ولا السخونة ولكنهم يبلعون عش الغراب الحار الملتهب، ويهبطون بسرعة في توابلهم، وتحفهم بالفعل، ولا يطفئ لهيبهم إلا بالمشروبات الباردة المثلجة، وسوف ترى كما أخبرتك أن بعض المخلوقات الهزيلة متلفحة برداء وشجة يونانية، شاحبة ومريضة، لا ترشف الثلج بل تأكله حقًا، ويقطرون كتلًا منه في أكوابهم ليمنعوها من أن تتحول إلى الدفئ فى الفراغات بين الشراب.

هل تعتقد أن هذا عطش؟ إنها حمى، ولا تُكتشف عن طريق الشعور بالنبض وبحرارة الجلد ولكن بالترف، الشر الذي لا يُهزم، ويتنامى من اللين والمرونة إلى الصلابة والبقاء، ويفوق القلب ذاته، ألا تُدرك أن كل شيء يفقد قوته بالألفة؟ فإن ثلجك الذي نسبح فيه جميعًا الآن جاء من الاستعمال الرتيب والاسترقاق اليومي للمعدة ليحتل مكان الماء، أبحث عن شيء أشد بردًا من الثلج، لأن البرودة بمجرد أن تعتاد عليها لا تساوي شيئًا."[١]

وأما القضية الثالثة

وتتلخص في قصة هوستيوس كوادرا الذي لم يحتقر أي وسيلة لتحفيز المتعة، ولم تنحصر وقاحته على جنس واحد، بل اشتهى الرجال والنساء، وصنع نوعًا من المرايا تعطيه صورًا مكبرة للغاية، وظهر فيها الأصبع أطول وأرفع من الذراع، ورتبها بحيث عندما يستسلم لرجل بظهره يرى كل حركات ملاوطه في المرآة ويفرح بالحجم الوهمى لعضوه كما لو كان حقيقي.

واعتاد أن يُجند كل حمامات المنازل ورجال منتقين بعد تحجيمهم بشكل واضح، ورغم كل ما كان يستعمله لإثارة رذيلته التي لا تشبع بخداعاتها كذلك، مضى ليقول لنا إن المرايا قد أُكتشفت حتى ننظر بشغف!، من المثير للإشمئزاز أن نتحدث عن هذا

[1] - Seneca: book4 B, On Clouds, <Rain, Hail, Snow>, op.cit,13-7,6,9,10,11, p79.

الوحش، الذي ينبغى أن يُمزق أربًا من فمه لما قاله وفعله من وضع كل المرايا حوله، حتى يتمكن من أن يكون متفرجًا على قباحته، ولم يملأ فمه فحسب بل عينيه بأشياء يثقل عن حملها الضمير حتى لو بقت سرًا، وهي أشياء يتبرأ أي امرىء من ارتكابها حتى لو لنفسه.

"إنه شاهد شهوة فمه، وشاهد الرجال الذين قبلهم بأوضاع مختلفة، فأحيانًا كان يتقاسم نفسه بين رجل وامرأة، ويفرد لهم جسده كاملًا بسلبية، إنه شاهد هذه الأفعال التي لا تُوصف، فما الذي فعله هذا النجس على الأرض تتخلى عن فعله في الظلام؟ إنه لم يخش ضوء النهار، وأعجب بنفسه وتلك الوصلات الوحشية، ألم تتوقع أنه حتى أراد رسم صورته في الفعل؟"(١)

وهذا النموذج من البشر يسيئ لأخلاقيات البيئة كما يرى سينيكا لأن هذا النموذج يقول" أنا استسلم لرجل وامرأة في آن، ومع ذلك حتى ما أفعله زائدًا فهو إذلال لشخص ما، فكل أعضائى مشغولة بأفعال الفحش: فعيناي لها نصيب في شهوتي، وهي شهود محققين، حتى الأشياء التي تبقى بعيدة عن النظر بسبب بنية أجسادنا أجعلها مرئية بالتقنية، ولا أحد يعتقد إنني لا أعرف ما أفعل. أهدرت الطبيعة وقتها لكونها بخيلة للغاية بعونها، فقد أعطت للإنسان الشهوة، ورتبت اقتران أفضل للحيوانات الأخرى، وسوف أجد طريقًا لخداع وإشباع هاجسي، فما يُجدى ضعفي إذا بقي عجزي في حدود الطبيعة؟ فسوف أحيط نفسي بنوع مرآة يعطى صورًا كبيرة للغاية. وبقدر ما أستطيع سوف أجعلها واقعية وإن لم أستطع سوف أتغذى على الوهم، وترى فاحشتى ما يزيد عن قدرتها وتزهو بالأشياء التي استسلمت لها"(٢)

ويقول سينيكا "يا له من عار! ربما قُتل على عجل قبل أن يراها: فكان ينبغي أن يُضحى به أمام مرآته!. ودع الذين يسخرون من الفلاسفة لأنهم يناقشون طبيعة المرآة،

---

[1] - Seneca: Natural Questions, on fire, Natural Questions, translated by Harry M. Hine, The University of Chicago Press, 2010, 16-4, p159.

[2] - Ibid: 16-6 : 16-8, p160.

ويسألون لماذا يرتد إلينا مظهرنا، ولماذا توجه نحونا، وما تفكر فيه الطبيعة بعد أن تنتج أجسام حقيقية، حيث أرادت أشباه لها لتُرى.

وما الهدف من إنتاج هذه المادة القادرة على استقبال الصور، من المؤكد لم يكن الأمر هكذا لنقتلع لحانا أمام المرآة أو حتى نجعل نحن الرجال وجوهنا ملساء: إنها لا تخدم مقاصد الرفاهية، لا، وهي في المقام الأول تستعمل لأن أبصارنا ضعيفة للغاية لتنظر مباشرة للشمس وتتعرف على شكلها، فقد خلقتها الطبيعة بضوء ضعيف، ورغم أن المرء يدرس الشمس في شروقها وغروبها، ولا يزال لا يعرف عن مظهرها الحق حين تشرق باللون الأبيض لا الأحمر إن لم تبدو لنا بمظهرها لنا بلطف أعظم، ويسهل النظر إليها كما في بعض السوائل. وزد على ذلك إننا لم نر الجسمين السماويين المقابلين اللذين يقطعا ضوء النهار، ولا نعرف ما الذي يحجب ضوء الشمس مع عدم وجود غيمة في طريقها وإن لم نر صورتا الشمس والقمر على الأرض. وقد أُخترعت المرآة ليعرف البشر ذواتهم، ويؤدي ذلك إلى فوائد عدة – أولها معرفة الذات، وتوجيه حالات بعينها: فالوسيم حتى يتجنب العار، والقبيح حتى يُدرك أن الفضيلة تعوض العيوب الجسدية، والشاب ليتذكر أن جمال الشباب قد يحين به التعلم ومنجزات الشجاعة، والكهل ليطرح ما هو غير مناسب للشعر الرمادى ويتفكر الموت، وهذه هي الأسباب التي منحتنا إياها الطبيعة لنرى ذواتنا.[1]

وينتقل سينيكا من قضية هوستيوس إلى بعد أكبر وهو تفشي الرفاهية وخبث البشر على عكس ما عاشه الأسلاف فقد "عاش العجائز حيوات غير مصقولة وكانوا أذكياء بما يكفي إذ استعملوا النهر الجارٍ ليغسلوا أوساخهم المتراكمة أثناء عملهم، وحتى لو حرص هؤلاء على تصفيف شعورهم وتمشيط لحاهم الطويلة فإنهم فعلوا هذا بأنفسهم لا لبعضهم بعض، وحتى الزوجات لم تتعامل مع شعور أزواجهن، حيث كان من

[1] - Ibid: 17-1: 17-4, p161.

عادة الرجال في ذلك الوقت أن يطول شعرهم، وبدوا وسام دون عون من خبراء، وأطلقوا شعرهم كما تطلق الحيوانات الأصيلة أعرافها.

ومؤخرًا سادت الرفاهية، وكبرت المرآة بطول الجسد، وصنعت من الذهب والفضة المنقوشين، ورصعت مؤخرًا بالمجوهرات، وواحدة من هذه المرايا قد يكلف المرأة ما يزيد عن قيمة مهور نظرائها القدامى بما فيها المهور المقدمة للنفقة العامة لأبناء القادة الفقراء، هل تعتقد أن بنات سكيبيو ملكوا مرآة مطلية بالذهب عندما دُفعت مهورهن بالعملة النحاسية القديمة.

وتمضي الرفاهية للأسوء تدريجيًا، وتغريها الثروة ذاتها، وقد تمددت الرذيلة على نحو فسيح، وصار دون قصد الملاذ لكل أنواع العلاجات التي اعتدنا أن نسميها مستحضرات تجميل أنثوية الآن معيارًا لعدة الرجال – أقول لك كل الرجال حتى الجنود، وهل تستعمل المرآة الآن لأجل مظهرنا فحسب؟ لا، لقد أصبحت ضرورة لأي وكل رذيلة."[١]

وأما القضية الرابعة وهي الطريقة التي تُنهب بها خزائن بدافع الطمع، التي يسرد لنا فيها سينيكا هذه القصة "ودعني الآن أحكي قصة، حيث كتب أسكليبيودوتوس Asclepiodotus ([٢]) أن فيليب أرسل عددًا من الرجال إلى منجم قديم قد هُجر منذ زمن بعيد[٣]، ليكتشفوا مدى ثراء ودائعه، والحالة التي كان عليها، وعمَّ إذا كان طمع الماضي قد ترك شيئًا لأجيال المستقبل، ونزلوا بمشاعل وفيرة تكفي لأيام عدة، وعندما نفدت لطول الرحلة، رأوا أنهارًا هائلة وبحيرات ضخمة لمياة راكدة مثل بحيراتنا، ولم تضيق بالأرض التي تثقلها ولكن لها مكان فسيح مفتوح.

---

[1] - 1bid: 17-7 : 17-10, p162.

[٢] – لم تُعرف آراء أسكليبيودوتوس العلمية إلا من سينيكا فحسب، ومن المرجح أنه مؤلف كتاب Tactica ، وهو بحث حول الخطط العسكرية.

[٣] – على الأرجح أنه فيليب الثاني (٣٨٢–٣٣٦ قبل الميلاد) ملك مقدونيا ووالد الإسكندر الأكبر.

قرأت هذا بسرور عظيم، لأنني أدركت أن جيلنا يكافح رذائل موروثة من الماضي وليست جديدة، ولم يكن يومنا هذا فحسب الذي قد تفشى فيه الطمع في عروق الأرض والصخور والبحث في الظلام عن ما أُخفى بعناية، فأجدادنا الذين نثني عليهم دوما، ونشتكي أننا لا نشبههم قد قادتهم آمالهم لعزيق الجبال، وأوقفوا جل مكاسبهم تحت أنقاضها[١]. وقد كان هناك أناس قبل الملك فيليب المقدونى سعوا للحصول على المال من أعمق الخبايا، ومع أنهم تمتعوا بالاستقامة والروح الحرة، فقد طأطأوا رؤوسهم ليدخلوا هذه الكهوف حيث لا فرق فيها بين الليل والنهار، فما الأمل الذي كان يراودهم ليولوا ظهورهم للنهار؟ إن البشر يقفون منتصبين يواجهون النجوم، فما الضرورة العظيمة التي تدفعهم للإنحناء وتدفنهم وتغرقهم في أعماق باطن الأرض ليكتشفوا الذهب، والذي لا تقل خطورة البحث عنه عن امتلاكه؟ ولأجل هذا حفروا الأنفاق، وزحفوا خلف دنسهم، والنهب غير الجدير بالثقة، ونسوا ضوء النهار، ونسوا العالم الأفضل الذي أداروا له ظهورهم، فهل الأرض تضجع مثل ثقل على أي جثة كما فعلت على هؤلاء الناس الذين ألقى عليهم الطمع العميق ثقل الأرض الذي سرقته من السماء ودفنته في الأعماق حيث استتر السم القمئ؟ [٢] قد تجرؤا بما فيه الكفاية لينزلوا إلى حيث يواجهوا نظامًا طبيعيًا جديدًا: فالأرض معلقة فوقهم، وتضرب الرياح بلا هدف في الظلام، وتتدفق ينابيع المياة الكالحة وهي لا تنفع أحد، والليل العميق بلا نهاية، وهم يفعلوا هذا يخشون العالم السفلى![3]

وأما القضية الخامسة هي أن الرياح سُخرت للإنسان وربطت المناطق المنفصلة عن بعضها بعض، ولكن الإنسان استغلها على نحو رديء فسخرها للحرب، ولذلك يقول

---

١ – فسادهم": أي أن الأرض المذكورة أعلاه مهددة بالانهيار عليهم. ولكن أيضًا رمز للفساد الأخلاقي والجشع.

٢ – أي الذهب.

3 - Seneca: on wind, Natural Questions, translated by Harry M. Hine, The University of Chicago Press, 2010,16-4, p82.

سينيكا: "وفكر فحسب كيف ربطت الرياح الأمم بعضها بعض، وجمعت الشعوب المنفصلة جغرافيًا! إنه لطف جم للطبيعة إن لم تنحرف حماقة البشر عن الضرر بها!، والأمور بما هي فما الذي قيل عن جايوس ماريوس Gaius Marius وسجله تيتوس ليفيوس Titus Livius ([1]) ليس من اهتمام الدولة أن تُولد أو لا تُولد، ويمكن أن يقال هذا عن الرياح، ولا تباري أثارها النافعة والضرورية بما يصنعه جنون جنس البشر من دمار لها. ولا تكف هذه المنافع عن خيرية جوهرها لمجرد أنها تسبب ضررًا بخطأ من يسيئون استعمالها، وليس لهذا السبب قد أعطت العناية الإلهية والإله الذي يدبر العالم الرياح مهمة الحفاظ على حركة الرياح وصب الرياح من كل الاتجاهات لتمنع أي شيء من أن يصير مهجورًا بإهماله – فلا يمكننا حشد الجنود المسلحين في أساطيل تسيطر على طرفً كبير من البحر ولا يمكننا البحث عن عدو على البحر أو ورائه. فما الذي يدفعنا ويضعنا ضد بعضنا بعض لتدميرنا المتبادل؟ فنحن نبسط الأشرعة للرياح لنبحث عن الحرب، ونراود الخطر من أجل الخطر، ونخاطر بتقلب الحظ، وليس بمقدور موارد الإنسان أن تتغلب على العواصف القوية، وموت دون أمل في الدفن. لن يستحق الأمر التكلفة إذا وصلنا للسلام بعد كل هذا، وكما هو الحال عندما نتجاوز كل الشعاب المرجانية الخفية والفخاخ التي أرستها البحار الضحلة، وعندما نهرب من الجبال الشاهقة والعاصفة التي تنطلق منها الرياح وتدمر البحارة، وعندما نهرب في النهار من الغيوم الملبدة ومن المطر والرعد في الليالى البرية، وعندما نهرب من السفن التي مزقتها العواصف، فما الذي سنحققه من هذا الكد والخوف؟ وما الميناء الذي سيرحب بنا عندما تستنزفنا كل هذه المعاناة؟ إن الحرب عدو ينتظرنا على الشاطئ، تُقدر للأجناس أن تُذبح، وتُدحر غزاتهم معهم، وتشعل النيران في المدن القديمة! ولن يكون إفراطًا أن نقول إن الطبيعة كانت ستعملنا على

[1] – ج. ماريوس C. Marius (c. 157–87 BCE) كان جنرالًا كفؤًا ولكنه كان بارزًا فى العنف السياسى والحروب الأهلية في أوائل القرن الأول.

نحو أفضل إن منعت الرياح من الهبوب، ومنعت المجانين من الاندفاع في جميع الاتجاهات، وأجبرت الجميع بالبقاء في أرضه، وإن لم يكن ثمة شيء آخر، فسوف يجلب ميلاد كل امرىء الشر على نفسه وعلى أهله، ولكن الأمر بما هو فإن الشرور المحلية ليست كافية لي، ويجب أن يعانى الأجانب منها كذلك.

ولا يوجد أرض بعيدة لا يمكنها أن تصدر بعض شرورها، وكيف أعرف ما إذا كان في هذه اللحظة بعض غموض الرب للشعب العظيم، ومنتفخًا بلطف الحظ، ولم يعد يحصر قواته المسلحة في أرضه، وعما إذا كان يبني أساطيل أم يتبع خططًا مجهولة؟ وكيف أعرف إذا ما كانت هذه الرياح أم تلك التي تجلب لي الحرب؟ إن إغلاق البحار سوف يكون إسهامًا كبيرًا في السلام الإنساني. وكما قلت منذ وقت قصير لا يمكن أن نشتكي الإله صانعنا إذا أفسدنا عطاياه الخيرة وجعلناها على النقيض، إنه منح الرياح لتضبط درجة حرارة السماء والأرض، وتستخرج وتقيد تدفق الرياح، وتُغذى ثمر المحاصيل والأشجار، ويجلب لها النضج بجانب علل أخرى بالهز في الرياح، والتي تغذي قمة النباتات وتحركها ليمنع ذبولها. إنه منح الرياح لتمكن من اكتشاف المناطق البعيدة: فالبشر قد يكونوا مخلوقات جاهلة دون مزيد من الخبرة بالعالم إذا انحصروا في حدود ترابهم القومي، إنه منح الرياح فوائد لكل منطقة تتشاركها وليست لينقلوا الجحافل والفرسان ولا لينقلوا الجيوش المدمرة للأمم. وإذا قسنا فوائد الطبيعة مقابل فساد من يستعملونها ندرك أن ذلك ضرر علينا جميعًا، فما فائدة البصر والكلام اللذان يقوم بهما المرء؟ ومن لا يجد الحياة عذابًا؟ سوف لا تكتشف شيئًا لهذه الفائدة الواضحة لا يمكن تحويله إلى النقيض بالخطأ، لذا أبدعت الطبيعة الرياح كذلك لفعل الخير: ونحن أنفسنا جعلناها تعمل النقيض.[1]

ثالثًا: نقد الرفاهية ولا أخلاقيات الهيمنة على العالم

أ- نقد الرفاهية

[1] - Seneca: On Wind, op.cit, 18-6, p84.

إن مذهب سينيكا في العيش السعيد قد أوجزه في العبارات الآتية " وسيكون حد طعامي وشرابي لكفاية توقي الطبيعي، وليس لملء وعاء بطني، وسأكون لطيفًا مع أصدقائي وعطوفًا لينًا مع أعدائي، وسأظفر قبل أن أطلب، وحين يُطلب مني عملٌ أخلاقيٌّ سأصنعه وأركض نحوه، وسوف أعلم أن وطني هو العالم وأن الأرباب مَن تحميه، وهي تقف من فوقي ومن حولي وتراقب أفعالي وكلماتي، وحين تطلب روحي العودة أو تعطي لعقلي إذنًا للرحيل، سأرحل شاهدًا بأنني أحببت ضميري الحسن وتأملاتي الخيرة، ولن تحد حرية أحد مني ولن تُقلص عملي"– إن الذي يعزُم عمل هذه الأشياء والذي يرغب فعلها ويحاول القيام بها فإنه يتوجه بالسفر نحو الأرباب، والحق أنه لو لم يصل إليها المرء لن يفشل؛ لأنه جرؤ على أمور عظيمة.(١)

وبناء على هذا المذهب المعتدل في العيش ينتقد من يرغبون في طريقة من وراء الطبيعة؛ ليزودوا مطابخهم الفاخرة، ولا يشعرون بالخجل في محاولة الحصول على لحم الدجاج من البارثيين *Parthians*، أو حتى من عند الذين بيننا وبينهم ثأر، ومن كل الأطراف التي يجمعون منها كل شيء يعرفه الحنك المُنعم، ومن طعام أعماق المحيطات الذي ينقلونه إلى بطونهم، ووهنوا بحياتهم المرفهة وأصبحوا بالكاد يستوعبوا، إنهم يتقيؤوا ليأكلوا ويأكلوا ليتقيئوا، ويستقصون الولائم من جميع العالم ولا يتنازلون فيها عن النبش، ولو أنكر الإنسان هذه الأشياء فكيف يمكن أن يضره الفقر؟

ويقول سينيكا أيضا توكيدًا لمذهبه في ذم الإسراف "وأعترف أن حبي للاقتصاد عميق، فأنا لا أحب ترتيب الأريكة للعرض أو الملابس المتدلية من الصدر والتي تلمع قسرًا بكبس ألف مقدار من القماش، والحري أنني أحب الملبس المنزلي غير المتكلف الذي

[1] - Seneca: On Happy Life, translated by James Ker, Hardship and Happiness, The University of Chicago Press, 2014, 20-5, p257.

لا يجعلني متحفظًا أو يضعني في رقابة تقلقني. وأحب الطعام الذي لا يشرف على إعداده رهط من الخدم أو الذي يستغرق أيامًا في إعداده ويقدم بأيدي كثيرين، ولكني أحب المتاح والبسيط دون المكونات الغريبة والثمينة، فهذا لا أحتاجه بأي داعٍ، أو يُحمل جسدي وميزانيتي عبئًا أو يُثير فيَّ القيء.[١]

"وكيف يزيد فلاح ممتلكات وطنك أكثر من الاستخدام الطبيعي؟ ولماذا لا تتناول طعامك وفقًا لاحتياجاتك؟ ولماذا أساسك باهظ الثمن؟ ولماذا تستهلك نبيذًا في بيتك أقدم من محصولك؟ ولماذا هناك ذهبٌ في كل أينٍ؟ ولماذا تُغرس الأشجار لتقدم شيئًا غير الظل؟ ولماذا تلبس زوجتك في أذنيها أصولًا تعادل ما تملكه أسرة ثرية؟ ولماذا تُزخرف مدرسة الفتيان العبيد بزي باهظ الثمن؟ ولماذا تزين منضدة بيتك بالفن الجميل وتطليها بالفضة التي لم توضع عشوائيًّا وعفويًّا بل رتبت بيدَي خبير، وقد عينت فنانًا لنحت أطباقك الخاصة؟". وأضف إلى ذلك إن رغبت " لماذا تتملك عبر البحار؟ لماذا تتملك أكثر مما تعيه؟ ولماذا تتجاهل بشكل مشين حتى أنك لا تعرف عدد عبيدك القلة أو كذلك الترف المشين الذي تملك ذاكراتك منه الكثير لتحفظ معرفته؟".[2]

"نحن لم نتخلص بعد من كل أثر للصحة، ولا نزال ندمغ أي بقايا للصفة الحسنة، وبأجسادنا الملساء اللامعة قد تجاوزنا علاجات التجميل الأنثوية، فنحن رجال نتزيي بألوان البغايا التي لن ترتديها النساء المتزوجات، ونمشي على أطراف الأصابع بنعومة، وخطوات متدللة (فنحن لا نمشي بل نتبختر)، وزينا أصابعنا بالخواتم، وصَفّت الجواهر على كل مفصل. نبتكر يوميًا طرقًا لإتلاف ذكورتنا، وربما نذل حيث لا يمكننا الخلاص منها، فأحدهم يقطع أعضائه التناسلية، وآخر يهرب للقسم الداعر لمدرسة المجالدين، وعندما يُستأجر ليموت يختار نمطًا مخزيًا من الوقاية فيه قد يدلل مرضه حتى على درجة الموت.[٣]

---

[1] - Seneca: Tranquility of Mind, op.cit,1,5-6.182.

[2] Seneca: On Happy Life,op.cit, 17-2,p254.

[٣]- عُزل الرجال المخنثين فى مدارس المجالدة عن بقية الرجال، وكان لهم دروع مختلفة.

هل تندهش بأن الحكمة لم تكمل مهمتها كاملة بعد؟ فالشر لم يكشف عن ذاته كاملًا بعد، إنه لا يزال يأتي للميلاد، وجميعنا في خدمته، فأعيننا وأيدينا هم عبيده، وأما الحكمة – فهل التي تمضي إلى أى مكان يقربها؟ وهل من يفكر فيها يستحق أكثر من معرفة عابرة؟ وهل التي تستغرق في أي ملاحظة للفيلسوف أو أي دراسات حرة إلا عندما تُأجل الألعاب أو عندما يكون اليوم ماطرًا ويشعرون فيه بالقلق.

ولهذا السبب يموت النسل الفلسفي دون تابعين: فالأكاديميون القدامى والجدد[١] لم يخلفوا وراءهم كاهنًا كبيرًا، فمن الذي تسلم تعاليم بيرون؟[٢] ولم تجد المدرسة الفيثاغورية غير الشائعة عند عامة الناس معلمًا، والشيعة الجدد للمدرسة السكستية Sextii[٣] بقوتها الرومانية ماتت أثناء بدايتها مع أنها بدأت بأثر عظيم.[4]

ب- لا أخلاقيات الهيمنة على العالم

ويتحدث سينيكا باحتقار عن تفاهة الإمبراطوريات الأرضية حين تقارن برحابة السماوات، ويناقض في نهاية الكتاب الخامس سوء استعمال الرياح حين يستعملونها للغزوات والحروب باستعمالها للسفر للبحث عن معرفة جديدة للعالم، وهذا ينطوي على على رؤية سلبية للإستعمارية الرومانية، ولكن تركيز سينيكا الرئيس هو التوكيد على الاختلاف بين الفهم والتحكم في العالم لأجل القوة أو اللذة، والرغبة في فهمه بدوافع فلسفية.

---

[١] – كانت الأكاديمية هي المدرسة التي أسسها أفلاطون في القرن الرابع قبل الميلا ، من منتصف القرن الثالث إلى النصف الأول من القرن الأول قبل الميلاد، والمعروف باسم فترة الأكاديمية الجديدة حيث كان الشك منتشرًا في المدرسة.

[٢] - بيرون (Pyrrho of Elis c. 365–275 Bce) فيلسوف يونانى ومؤسس مدرسة الشك.

[٣] - سيسكتيوس Q. Sextius (فترة أوغسطوس) مؤسس المدرسة وابنه المحتمل سيكستيوس نيجر Sextius Niger.

[4] - Seneca: On Comets, op.cit,32-2, p135.

ويستهجن سينيكا الإسكندر ويقول " ولكن ما الذي يشترك فيه هذا الشاب المجنون مع هرقل؟ قد كان الإسكندر جريئًا ومحظوظًا، وليس لديه فضيلة، وأما هرقل فلم تكن فتوحاته لجني مصلحة بعينها، ولم يتجول في العالم من أجل شهوة الغزو، ولكن لقناعته لما ينتصر له، وكان عدوًا للأشرار ومدافعًا عن الأخيار وواهبًا للسلام في البر والبحر، ولكن الإسكندر منذ صغره كان لصًا وناهبًا، وهو خطر على أعدائه وأصدقائه، وتبّلور فكره في إرهاب كل المخلوقات الحية، فلم يكن أشرس من الحيوانات فحسب بل أحط من الحيوانات التي نخشى سمها.[١]

ويقول سينيكا "كم هي سخيفة حدود البشر! حيث لا يتوجب على الداكيين Dacians أن يمروا خلف الدانوب الأدنى، ويطوق التراقيون إمبراطوريتهم بجبل هايموس Haemus، والفراتيون Euphrates يحجزون البارثيين Parthians، ورسم الدانوب الحد بين السارمتيون والأراضى الرومانية، ووضع الراين حدًا على الجرمان، وترفع جبال البرانس سلسلة تلالها بين الغال والمقطاعات الإسبانية، وتقع الرمال الصحراوية غير المفلحة بين مصر والأثيوبيون.[٢]

لو أعطى امرىء ذكاءً إنسانيًا للنمل فهل لا يقسم الجُرن الواحد إلى أكوام عدة؟ وبمجرد أن تصعد لتلك المناطق الرائعة حقًا، وحينما ترى جيوشًا تمشي بهمة عالية كما لو أن شيئًا عظيمًا يحدث حيث يحرس الفرسان مؤخرة الجيش ويستكشفون المقدمة وينتشرون على الأجنحة، وتود أن تقول "الطابور الأسود يسير عبر السهل"،

---

[1] - Seneca: On Benefits, 13-3, p30.

[٢] – يتحدث سينيكا هنا بسخرية كما لو أنه يملي أين يجب أن تكون الحدود بين الإمبراطورية الرومانية وجيرانها، وبين المقاطعات داخل الإمبراطورية. الداكيون Dacians شمال نهر الدانوب الأدنى والبارثيون شرق الفرات، والسارماتيون شمال غرب الدانوب الأعلى، والجرمان شرق الراين، والإثيوبيون جنوب من مصر، كانوا جميعًا خارج حدود الإمبراطورية. سلسلة جبال الهموس فى زمن سينيكا انفصلت عن مقاطعة تراقيا وموزيا، وانفصلت جبال البرانس عن أكيتانيا وغاليا ناربونينسيس Gallia Narbonensis ومقاطعتى الغال عن المقاطعات الأسبانية.

إنها مجرد هرولة نمل كادح في حدود ضيقة، فما الفارق بينكم وبينهم بصرف النظر عن حجم أجسادكم التافهة؟

إنها مجرد طعنة إبرة تبحرون عليها، وتشنون حربًا عليها، وتضعون فيها ممالككم، وتافهة حتى حين ينكسر المحيط على جانبيها.[١] فوقها مساحات فسيحة، يُسمح للعقل بدخولها وشغلها، شريطة ألا يأخذ معه شيء من الجسد يُذكر، ويمسح أي غموض، ويُحلق عاليًا بلا إرهاق، ذكيًا معتمدًا على الذات.

عندما تصل إلى تلك المناطق تجد التغذية وتنمو كما لو تحررت من قيودها، وتعود إلى أصولها، وتأخذ هذا برهانًا على ألوهيتها، وتبتهج في الألوهية وتتمتع بها لا باعتبارها ملك لها لا ملكًا لأحد آخر، وتراقب بثبات النجوم الصاعدة والمحيطة، ومساراتها المختلفة بل المتناغمة، تراقب أين يكشف كل نجم عن نوره للأرض، حيث تكون ذروته [الطرف الأعلى لمساره] وإلى أي نقطة يهبط[٢] ولكونها متأملًا مفتونًا تتفحص وتستفسر في كل التفاصيل.

ولماذا لا تستفسر؟ إنها تعلم أن كل هذا يتعلق بنفسها، وتحتقر حدود موطنها السابق، وإلى أي مسافة تبعد سواحل أسبانيا وجزر الهند؟ لأيام قليلة للغاية إذا اندفعت برياح مواتية[٣] ولكن هذه المنطقة السماوية تتيح رحلة تستمر ثلاثين عامًا لنجم سريع لا

---

١ – أي "حتى لو كانت ممالكك تمتد من جانب واحد من العالم المسكون إلى الآخر ."ظن الإغريق والرومان أن الكتلة الأرضية بأكملها المأهولة هي أوروبا وآسيا وأفريقيا وهي محاطة من جميع الجهات بالمحيط.

٢ – أي يلاحظ العقل أن النقطة التي يرتفع فيها النجم في الأفق هي النقطة التي تعبر فيها مساره السماء والنقطة التي يغرب منها في الأفق، وجملة " الجزء الأعلى لمساره" تبدو شرح محرف لكلمة "ذروة".

٣ – ربما يتفكر سينيكا في الرحلة شرقًا من إسبانيا إلى الهند (التي تضمنت عبور مصر برًا من البحر الأبيض المتوسط إلى البحر الأحمر) ولكن كولومبوس في عصر النهضة وآخرون اعتقدوا أنه يتحدث عن رحلة من أسبانيا غربًا

see D. Clay, "Columbus' Senecan Prophecy," American Journal of Philology 113, no. 4 (1992): 617–20.

يتوقف ولكن السرعة غير موحدة[١] ، هناك يتعلم العقل ما يطيل البحث فيه، ويبدأ بمعرفة الرب، وما الرب؟ إنه عقل العالم، وما الرب؟ كل ما تراه وكل ما لم تراه، حين تدرك عظمته الحقة فحسب – تلك العظمة التي لا تتخيل شيئًا أعظم منها– إن كان وحده هو كل شيء، إنه هو يهيمن على خلقه من الظاهر والباطن.[٢]

لماذا ندفع الأمم للسلاح؟ ولماذا نجند الجيوش لترسم خطوط المعركة وسط الأمواج؟ ولماذا نُربك البحار؟ إن الأرض ليست واسعة بما يكفى لدفن كل موتانا! إن الحظ أشبع رغبتنا كثيرًا، ومنحنا أجسادًا عالية المرونة وبارك العافية الحسنة! ولم يداهمنا سوء الحظ! وكل منا يقيس سنينه في سكون الوطن وعدوه حتى الشيخوخة! لذا دعونا نتجه إلى البحار، ونستدعي الأقدار المهملة لتتساقط علينا!

عم تبحثون أيها البائسون؟ أليس الموت يشيع على كل مكان؟ سوف يلحق بكم في مضاجعكم، فتيقن أنك طاهر حين يأتيك، وسوف يستولي على منازلكم، فتيقن أنك لم تتآمر على شر حين يقبضك.

ماذا يمكن أن يَطلق عليك سوى الجنون حتى تحمل الخطر معك وتداهم أناسًا مجهولين وحتى تغضب دون خطأ وحتى تدمر كل شيء في طريقك وحتى تقتل امرئ لا تكرهه كما تفعل الحيوانات؟ إن الحيوانات تعض للإنتقام أو للجوع: دون أن نقتصد في دمائنا أو دم امرىء آخر[٣] ونضع أيدينا على العمل، ونطلق السفن، ونوكل سلامنا للأمواج، ونتضرع لأجل رياح مواتية – ونوقف نجاحنا في الانتقال للحرب.

إلى أي مدى وصلت بنا أخطائنا! فجنون جزء من العالم ليس كافيًا، فلما يعبر ملك فارس ذلك الإنسان الغبي إلى اليونان، فجيشه لم يهزم البلاد مع أنه ملئها، ولهذا السبب سوف يرغب الإسكندر في مناطق ما وراء الهنود والباكتري، وسوف يحاول أن

---

١ – زحل see 7.27.4.

2 - Seneca: On Fires, op.cit,13, p138.

٣ – إكسركسيس Xerxes الذي غزا اليونان في ٤٨٠ قبل الميلاد،هُزمت قواته في سلاميس Salamis وبلاتياPlataea .

يبحث عن ما وراء البحر العظيم[١] وسوف يشكو من أنه يواجه طريقًا مسدودًا، ولهذا السبب سوف يسلم الجشع كراسوس Crassus للبارثيين Parthians[٢] ولن يرتجف من لعنات المنبر الذى يناديه للعودة، ولا العواصف فى رحلة البحر الطويلة ولا من ضربات البرق المرسلة والآلهة المعادية بالفرات Euphrates، وسوف يواجه البشر والآلهة ليصل إلى الذهب.

الخاتمة

يمكن أن نستخلص بعض النتائج التى انتهت إليها الدراسة وهي على النحو التالى:

أولًا: أن الاهتمام بالبيئة وقضاياها ليس تيارًا معاصرًا فحسب بل كان للفلاسفة القدامى نصيبًا في تداوله وطرحه، ولا يختلف لطرحهم كثيرًا عن التناول المعاصر.

ثانيًا: وصف سينيكا البيئة وما يقع فيها من أرض وسماء وبشر فى إطار المفهوم الرواقي 'العيش وفقًا للطبيعة'، وإن هدفنا أن نعيش وفقًا لهذا المبدأ وأن نحاذي مثال الأرباب، لأن هدف الأرباب لا يزيد عن الحفاظ على الطبيعة، وهذا الفرض هو التزام ديني من البشر نحو البيئة.

ثالثًا: يتعامل سينيكا في كتاب مسائل طبيعية مباشرة مع مخاوف الناس من الزلازل أو الصواعق في نقاط بعينها، ويتبع في هذا تراثًا فلسفيًا ممتدًا، وقد ذهب أبيقور إلى أنه لا يحتاج من دراسة طبيعة العالم سوى محو الخوف من الموت والخوف من الأرباب، وقد تبعه لوكريتيوس في التحرر من الموت، وهذا أحد الحوافز المتخللة أعمال سينيكا.

رابعًا: يرى سينيكا أن الإحسان لا يمكن أن يختزل الإحسان بين الإنسان وأخيه الإنسان بل يشمل الإحسان الوجود برمته، فهو وجود وسط بين الإنسان والطبيعة

---

[١]- أي المحيط

[٢] - م. ليكينيوس كراسوس M. Licinius Crassus أحد أعضاء الإئتلاف الثلاثي الأول triumvirate الذى غزا فارس عام ٥٥ ق.م، وقُتل بعد معركة كارهاي Carrhae عام ٥٣ ق.م، والمدافع المقصود كان أتيوس كابيتو C. Ateius Capito

والإنسان والرب، فالوجود مضفورة لا ينفلت عقدها، وذلك لأن الإطار العام للفكر الرواقى يؤمن بوحدة الوجود، وقد صاغ سينيكا العلاقة بين الإنسان والطبيعة فى إطار فلسفي مظهرًا فضل الطبيعة على الإنسان.

خامسًا: نقد سينيكا الاتجاه اللاأخلاقى تجاه البيئة في خمسة قضايا: وهي الانحراف الأخلاقي في التلذذ بمشاهدة موت الأسماك، والإسراف في استعمال الثلج، والانحطاط في استعمال المرايا المكبرة من جانب كودرا الذي كان يتلذذ بالفاحشة، وسوء استعمال الرياح التي خلقت لخدمة البشر، والطريقة التى تُنهب بها خزائن الأرض، وهذه القضايا تعبر عن الانحراف الأخلاقي نحو البيئة.

سادسًا: ناهض سينيكا الاتجاه الأخلاقي نحو الرفاهية والبذخ، وبين أن هذا الدرب من التعامل خروجًا عن النظام البيئي والأخلاقي، ولذلك كشف عن مذهبه الوسطي فى المأكل والملبس والعيش، وأقام لهذا المذهب كتابًا هو الحياة السعيدة.

سابعًا: انتقد سينيكا الاستعمارية الرومانية ونهمها للاستيلاء على العالم برمته، هذا النهم الذي خلق قوى متحاربة قد تؤدي إلى هلاك العالم، كما أنه انتقد مسألة الحدود المكانية بين البشر، تلك الحدود التى قد تصنع الحرب بينهم، وهي في الوقت نفسه تخل بالنظام البيئي.

قائمة المصادر والمراجع

أولًا المصادر

1- Seneca: on Benefits, translated by Miriam Griffin. The University of Chicago Press, 2010.

2- Seneca: Consolation to Marcia, translated by Harry m. Hine, Hardship and happiness, The University of Chicago Press, 2014.

3- Seneca: Natural Questions, on comets,translated by Harry M. Hine, The University of Chicago Press, 2010.

4- Seneca: on tranquility of mind, translated by Elaine Fantham, Hardship and happiness, The University of Chicago Press, 2014.

5- Seneca: on Leisure time, translated by Gareth d. Williams Hardship and happiness, The University of Chicago Press, 2014.

6- Seneca: on providence, translated by James Ker, Hardship and happiness, The University of Chicago Press, 2014.

7- Seneca: Natural Questions, On Terrestrial Waters, translated by Harry M. Hine, The University of Chicago Press, 2010.

8- Seneca *: Consolation to Helvia translated by* Gareth d. Williams, Hardship and happiness, The University of Chicago Press, 2014.

9- Seneca: book4 B, On Clouds, <Rain, Hail, Snow>, Natural Questions, translated by Harry M. Hine, The University of Chicago Press, 2010.

10- Seneca: on fire, Natural Questions, translated by Harry M. Hine, The University of Chicago Press, 2010.

11- Seneca: on wind, Natural Questions, translated by Harry M. Hine, The University of Chicago Press, 2010.

12- Seneca: on Happy life, translated by James Ker, Hardship and happiness, The University of Chicago Press, 2014.

ثانيًا المراجع

١- مايكل زيمرمان: فلسفة البيئة من حقوق الحيوان إلى الإيكولوجية الجذرية، الجزء الأول، ترجمة معين شفيق رومية، سلسلة عالم المعرفة، العدد٣٣٢، الكويت، ٢٠٠٦م.